# السرديات من النقد إلى الإبدال الثقافي: "سرديات ثقافية" نموذجاً

# *Narratives from Criticism to Cultural Paradigm: Cultural Narratives as a Model*

أ. **سعيدة تاقي:** أستاذة محاضرة بالمدرسة العليا للأساتذة، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب

**Ms. Saida Taqi:** ENS, UNIV HASSAN II, Cazablanca, Morocco.

Email: s.taqi@enscasa.ma

**DOI:** https://doi.org/10.56989/benkj.v4i11.1279

**الملخص**:

يشكَّل الوصف عماد السرديات البنيوية معرفياً وتحليلياً. ويشكِّل التأويل منطلق المنظورات الثقافية التي يقدِّمها كل من النقد الثقافي والدراسات الثقافية والنسوية والجندرية، ودراسات الزنوجة، والنظرية ما بعد الاستعمارية. ويتيح السرد محفلا ممتدا في الزمان والمكان يستدعي كل المقاربات والمنظورات والأشكال. في مركز اللقاء بين الرواية والسرديات البنيوية والنقد الثقافي تقترح هذه الدراسة قراءة نقدية في مؤلف "سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" للناقد محمد بوعزة. تستهدي هذه القراءة بالمفاهيم البنيوية للسرد، وتستدعي آفاق المنظورات الثقافية. وتتوخى الدراسة في مساعيها تحقيق نتيجتين اثنتين. أوّلاً كشف مداخل النص النقدي ورهانات الناقد المعرفية والمنهجية في دراسته للمتون الروائية العربية. وتهدف ثانياً إلى استجلاء الإمكانات التحليلية التي يتيحها استثمار المنظورات الثقافية في المقاربة البنيوية للسرد. وقد توصلت الدراسة في محاورها المختلفة إلى نتيجتين اثنتين. تتجلى أُولاهما في أن المقترب التحليلي لمؤلَّف "سرديات ثقافية" لم يعضِّد ما زكَّاه الإطار النظري للمؤلَّف في رهاناته المعرفية وفي مقترحاته النقدية والمنهجية. وتتلخص ثانيتهما في كون الانتقاءات النصية للمقتربات التحليلية لم تبتعد عن تحديد "النص" المعتمد أكاديميا وعن سلطة النص "البنيوية"، بمنأى عن الأفق المفتوح الذي وطَّنته الدراسات الثقافية والنقد الثقافي لمفهوم النص في العالم.

**الكلمات المفتاحية:** بنيوية، سرد، وصف، ثقافة، خطاب.

***Abstract:***

The description forms the pillar of structural narratives, both cognitive and analytical. Interpretation is the starting point for cultural perspectives presented by discourse analysis, cultural, feminist and gender studies, negro studies and post-colonial theory. The narrative provides an extended context of time and space that calls for all approaches, perspectives and formats. At the center of the meeting between the novel, structural narratives and cultural criticism, this study proposes a critical reading in the study of "cultural narratives, from identity politics to politics of difference" by the critic Muhammad Bouazza. The study first seeks to uncover the entries of the critical text and the critics' knowledge and methodology stakes in his study of the Arabic novels. Second, it aims to clarify the analytical potential of investing cultural perspectives in the structural approach to narrative. The

study reached two conclusions. The first is that the analytical approach to the book "Cultural Narratives" did not support what the theoretical framework had built in its epistemological stake and in its critical and methodological proposals. As for the second result, it is that the texts chosen for analytical approaches did not stray from the definition of the academically approved "text" and the "structural" authority, far from the open horizon that cultural studies and cultural criticism have established for the concept of text in the world.

**Keywords**: Structural approach, narration, description, culture, discourse.

**المقدمة:**

لا يختلف النقد البنيوي عن النقد الثقافي في البناء المعرفي والمنهج التحليلي فحسب، بل إنهما يختلفان في الإبدالات/ البراديغمات التي شكلت تصورات كل منهما نظريا وفكريا ونقديا. إن الخلفية التي يصدر عنها النقد الثقافي فلسفيا وثقافيا وسياسيا واجتماعيا تغاير كليا ما انطلق منه النقد البنيوي في مراجعته لمكاسب الدروس البنيوية اللسانية، وفي معارضته لمداخل النقد التي تقارب النص الأدبي عبر مرجعياته السياقية. لأجل ذلك، يقدم مؤلف الناقد محمد بوعزة "دراسات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" (بوعزة، 2014)، نموذجا نقديا محفزا للقراءة والبحث والتمحيص، من زاويتين اثنتين. تتمثل أُولاهما في كون المؤلَّف يقترح مقتربا نقديا يسعى إلى الجمع بين النقدين البنيوي والثقافي في دراسة الرواية العربية. وهو مسعى يتجاوز منهجيا ومعرفيا الحدود والمفاصل بين النقد البنيوي والمداخل الثقافية للنقد. وتتلخص ثانيتهما في خوض الناقد لمغامرة تسديد ثغرات النقد البنيوي بأفق المنظور الثقافي برهانات نظرية واضحة ومعلنة ضمن ما أرساه في الإطار النظري لمؤلَّفه، وبمنجز نقدي تحليلي متعدد حول متون روائية إبداعية مختلفة.

**مشكلة الدراسة وأسئلتها:**

إن التفكير من داخل النقد البنيوي . معرفيا وميتودولوجيا. في المداخل الثقافية مطمح يبدو مفارقا لنسقية كل من النقد البنيوي والنقد الثقافي. ولعل التفكير عبر النقد الثقافي في بنيوية النص الأدبي أطروحة تنسف منذ المنطلق التمايز في المفاهيم والرؤى والمقتربات بين المرجعية البنيوية والمرجعية الثقافية. في ظل ذلك تتحدد مشكلة هذه الدراسة في البحث في احتمالات المزاوجة بين السرديات البنيوية والإبدالات الثقافية في مقاربة النص الأدبي، عبر اتخاذ مؤلَّف الناقد محمد بوعزة "دراسات

ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" (بوعزة، 2014)، نموذجا تحليليّاً. وتسعى الدراسة إلى استجلاء أبعاد هذا الإشكال نظريا وإجرائيا بالإجابة عن أسئلة متعددة. فإلى أي حد يمكن الانتقال نظرياً ومنهجياً، ذهابا وإياباً، في قراءة نص روائي، بين السرديات البنيوية وبين المنظورات الثقافية؟ وما الإمكانات المعرفية التي يتيحها هذا الانتقال؟ وكيف يمكن للمقاربة الإجرائية أن تكون أمينة في الآن نفسه لإبداليين فكريين ونسقين تحليلين؟

**أهداف الدراسة:**

تستند السرديات البنيوية، في انشغالها الأساس بالنص، على توصيفه من الداخل وكشف بنيته الأدبية منعزلةً عن كل السياقات الخارجية للنص. أما الدراسات الثقافية والنقد الثقافي فلا يعتدان ببنية للنص مفصولة عن العالم والثقافة والمجتمع، ولا ينغلقان على التصور الرسمي المؤسساتي لمفهوم "الأدبية". لأجل ذلك فإن اقتراح مؤلف "دراسات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" (بوعزة، 2014)، لمقترب نقدي يوفق بين النقدين البنيوي والثقافي في دراسة الرواية العربية محفز موضوعي للدراسة والبحث وللنقد. في ضوئه تتوخى هذه الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:

- أولا: رصد المداخل المعرفية والنقدية لكل من الوصف البنيوي والتأويل الثقافي في مقاربتهما للنص الأدبي.
- ثانيا: استكشاف الأسس النقدية التي استند إليها الناقد بوعزة في تشييد مقتربه النقدي الجامع بين المنظورين البنيوي والثقافي.
- ثالثا: استجلاء الرهانات المعرفية والمنهجية التي يستشرفها الناقد في دراسته للرواية العربية.
- رابعا: رصد محددات الخطاب النقدي الذي أنتجه المقترب النقدي المقترح في مؤلف "دراسات ثقافية" لدراسة المتون الروائية المدروسة.
- خامسا: تقييم نتائج المقارنة بين ما أعلنه الناقد في مدخلات التشييد النظري، وبين مخرجات القراءة النقدية التحليلية للمتون الروائية.

**منهجية الدراسة:**

اعتمدت الدراسة في اشتغالها على مدى قدرة النص النقدي على الجمع بين الوصف البنيوي والتأويل الثقافي، بالانفتاح على مجال نقد النقد. ويقتضي ذلك تنويع أدواتها البحثية والإجرائية، لتتلاءم مع خصوصية الإشكال وطبيعة الأسئلة المتفرعة عنه. وهكذا تعتزم الدراسة الانتقال من الوصف إلى تحليل المضمون والمقارنة. فعبر المزاوجة بين الوصف والمقارنة تعقد الدراسةُ المقاربةَ الوصفية المُقارِنة بين السرديات البنيوية والمداخل النقدية الثقافية. وعبر توظيف تحليل المضمون تتقصَّد

الدراسة كشف وتحليل الأسس النظرية التي احتكم إليها الناقد بوعزة في تحديد إطاره النظري، وفي إعلان رهاناته النقدية، وكشف وتحليل محددات وأبعاد مقاربته التحليلية. وعبر التحليل والمقارنة ستتوصل الدراسة إلى المقابلة التحليلية بين مدخلات التأسيس النظري النقدي وبين مخرجات الممارسة النقدية الإجرائية.

**محاور الدراسة:**

تتفرع محاور الدراسة إلى أربعة محاور، تتصدرها مقدمة للتوطئة وبيان المشكلة والأسئلة والأهداف والمنهجية. وتعقبها خاتمة لتركيب الاستنتاجات والمقترحات. يتحدد المحور الأول في التمييز بين السرديات الوصفية والتأويل الثقافي. وينتقل المحور الثاني إلى استكشاف الرهان النظري للدراسة النقدية. ويرصد المحور الثالث، عبر الغوص في متن الدراسة، مُنجَزَها النقدي الإجرائي. ويتتبع المحور الرابع مختلف التمثيلات النصية التي اعتدَّت بها الدراسة النقدية، في مساعيها لاستكشاف الأنساق الثقافية للرواية العربية.

## 1. من السرديات الوصفية إلى التأويل الثقافي:

تحدِّد السرديات معرفياً في نموذجها العلمي البنيوي القوانينَ التي تنتِج النص السردي وكأنه بنية لسانية. وتنشغل تحليلياً في دراستها للنص السردي بتوصيف معالم أدبية ذلك النص بعيدا عن كل السياقات الخارجية. إن كل قراءة بنيوية تطمح إلى اكتشاف القواعد والأنساق والضوابط الكامنة وراء الممارسات الإنسانية والأدبية والاجتماعية والثقافية. وهو طموح "يماثل بين نماذج المسعى البنيوي المعروض في مجالات الأركيولوجيا والجيولوجيا؛ حيث يغدو ما نراه على السطح مجرد آثار لتاريخ أعمق، وحيث لا نملك غير الحفر تحت السطح لاكتشاف الطبقات الجيولوجية أو المستويات التحتية التي تزودنا بالتفسيرات الصحية لما نراه على السطح" (سيلدن، 1998: 109). فالتحليل الحديث للحكاية في نطاق السرديات "بدأ ظاهريا مع فلاديمير بروب بدراسات انصبت أساساً على القصة منظوراً إليها ما أمكَن، في حد ذاتها ودون كبير اهتمام بالطريقة التي تُروى بها" (جنيت، 1983: 16). وهذا يعني وفق مراجعة جيرار جنيت سنة 1983، لدراسته خطاب الحكاية الواردة ضمن مؤلفه (Figures 3)، أنَّ المجال سيُفسَح لنوعين من السرديات: أحدهما موضوعاتي بالمعنى الواسع (هو تحليل القصة أو المضامين السردية)، والآخر تنميطيٌّ (هو تحليل الحكاية بصفتها نمط ''تمثيل'' للقصص، في مقابل الأنماط غير السردية كالنمط المسرحي، وبعض الأنماط الأخرى خارج الأدب على الأرجح) (جنيت، 1983: 17). غير أن جنيت لا يتوانى عن التأكيد بأن مصطلح السرديات ظل ملكا مؤقتا لمحلِّلي النمط السردي وحدهم دون باقي محلِّلي المضامين والأنحاء والدلائليات السردية. مثلما يؤكد أنّ هذا الحصر مشروع على الإجمال؛ "مادامت خصوصية النمط السردي الوحيدة تكمن في نمطه وليس في مضمونه، الذي يمكن أن يتكيَّف جيدا مع ''تمثيل''

مسرحي أو خطي غيره" (جنيت، 1983: 17). ويشير (بارت) في مرحلته ما بعد البنيوية في كتابه (S/Z) إلى محدودية مطامح رواد السرديات البنيوية الذين أرادوا حصر كل محكيات (Récits) العالم في بنية واحدة. فقد فكروا أن يستخرجوا من كل حكاية نموذجها، ثم يشكلون من كل تلك النماذج بنية سردية كبرى؛ يحفظونها لتمحيصها في كل حكي، "وهي مهمة متعبة وغير مرغوب فيها؛ لأنها تفقد النص اختلافه وتميزه". وهذا الاختلاف ليس ما يحدد فرادة كل نص، ما يُسَمِّيه، وما يَسِمُه، وما يختصره في أحرفه الأولى، وما يختمه. وإنما، على العكس، هو اختلاف لا يتوقف ويتواصل في لا نهائية النصوص، واللغات، والأنساق (Barthes, 1970: 5)، وهذا يعني أن النقد الأدبي عليه الاختيار بين الوصف العلمي الموضوعي الذي ينبني على مطابقة كل النصوص السردية للنسخة المستَنْبَطة في القواعد والقوانين، أو إعادة كل نص إلى الإبدال اللانهائي للاختلاف (Barthes, 1970: 5). ويغدو فعل تأويل نص ما، وفق تحديدات (بارت) في مرحلته ما بعد البنيوية، "ليس منح النص معنى (راسخاً إلى حد ما، حرّاً إلى حد ما)، وإنما على نقيض ذلك تقدير ذلك التعدُّد الذي يشكِّلُه" (Barthes, 1970: 7) ويقتضي هذا فيما يقتضيه "التأكيد على كينونة النص المتعدِّدة"، و"تأكيد عدم وجود شيء خارج النص، وعدم وجود كُلٍّ داخلي للنص"، و"استحالة وجود بنية سردية أو نحو أو منطق للحكي في النص المتعدد" (Barthes, 1970: 7).

لقد حرص النقاد البنيويون على الغوص في البنى العميقة للنص لكشف قوانينه. وآمن نقاد ما بعد البنيوية بأن رغبة السيطرة على النص لا طائل من ورائها؛ لأن هناك قوى لغوية أو تاريخية أو لا شعورية منفلتة عن التحديد، ولأن إنتاج المعنى ذاته له طبيعة تناصية. "فالدال ينفلت عن المدلول. والمتعة تذيب المعنى. والسيميوطيقي يقضي على الرمزي. والإرجاء *Differance* يوقع الشقاق بين الدال والمدلول. والقوة تخل بنظام المعرفة. والواقع أن نقاد ما بعد البنيوية يطرحون من الأسئلة أكثر مما يقدمون من أجوبة. وهم يستغلون كل الاختلافات بين ما يقوله النص وما يظن أنه يقوله. فيطلقون النص ليعمل ضد نفسه، ويرفضون إجباره على أن يعني شيئا" (سيلدن، 1998: 158).

وهكذا وفي ضوء فتوحات ما بعد البنيوية المثيرة والمتعددة والمتلاحقة، لم يعد النقد قادراً على قراءة المعنى عبر الكلمات على وجه الصفحة. وأصبحت الفعالية النقدية فعالية إبداعية تتمثّل في إعادة بناء السياق. وبذلك ساوت مسؤولية الناقد في إنتاج المعنى مسؤولية النص الأصلي ومسؤولية المؤلف. واختفى الفاصل بين عمل نقدي وآخر إبداعي، فقد أصبح كل منهما طرفاً في عمليات إنسانية أكبر ترتبط باللغة وإنتاج المعنى (بنيت، 2010: 691). وبذلك لم يعد النقد يحصر مجاله في النص وحده، ولا حتى في النص الأدبي الكبير. لقد غدا النقد يسكن الحيز الثقافي المتنازع حوله، ولم يعد الأدب مجالا معزولا عن الميدان الثقافي الواسع، وتحولت القراءة والكتابة إلى الوعي بالخطر العظيم للفعالية التاريخية والسياسية التي امتلكتها النصوص الأدبية، وكذا كل النصوص (سعيد، 1996: 178).

## 2. الرهان النظري للدراسة النقدية:

يراهن كتاب "دراسات ثقافية . من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" (بوعزة، 2014) منذ صفحاته الأولى على تحقيق رهان مزدوج يمضي في منحيين متكاملين. يتمثل أول المنحيين في تجاوز المفارقات الإبستيمولوجية التي تسم الأفق البنيوي للسرديات خاصة في السياق المعرفي الفرنسي بالمحدودية. وهي محدودية يرصدها الكتاب لاحقا، عبر تتبعه للمسارين المنهجي والتحليلي المتحكمين في بناء النسق البنيوي. ففي المسار المنهجي تخص السرديات نفسها بميزة العلم، مسترشدة بالنموذج اللساني في وضع القوانين العامة التي يكون النص الأدبي المفرد والنوعي نتاجها. وفي المسار التحليلي تتخذ السرديات "من البحث في أدبية الخطاب السردي بؤرة التحليل بتدشين القطيعة مع التفسيرات الخارجية، وذلك بالتركيز على مكونات الخطاب السردي وخصائصه الاستيتيقية وتحليل قواعد نسقه وأواليات اشتغاله" (بوعزة، 2014: 27). ويتكامل المساران ضمن إجراء الوصف الذي تقترحه السرديات البنيوية بحكم أنه فاعلية علمية تتوخى الموضوعية في إنتاج معرفة جديدة بالموضوع السردي عبر مقولات نظرية أسفر عنها نموذج الوصف النسقي، وأهمها التمييز في كل سرد بين مستوى القصة ومستوى الخطاب (بوعزة، 2014: 28)، ولا يخلو هذا التمييز ذاته، وفق منظور الكتاب، من مفارقة منطقية تستضمر تراتبية متحيزة لاستيطيقا الخطاب، بافتراض أسبقية القصة على الخطاب الذي يقوم بتمثيلها وتشخيصها. وهكذا "تؤسس السرديات تراتبية *hierarchy*، بموجبها يتحدد الخطاب كاستراتيجية خطابية دينامية، تحدد جمالية القصة، التي ينظر إليها كشيء تابع، يكتسب صورته التمثيلية من اشتغال الخطاب، أي كنتاج للفعل الخطابي". (بوعزة، 2014: 29)، ويتلخص ثاني المنحيين في الانفتاح على الأسئلة المعرفية والمرجعيات الثقافية لطبيعة السرد، بإعادة تكييف المنجز النظري للسرديات البنيوية الموسوم بالمحدودية، في أفق ثقافي يتجاوز مستوى الوصف نحو عملية التأويل. يقول الباحث بوعزة: "إن ما يحدد طبيعة السرد هو وظيفته عبر اللسانية. فهو من حيث الجينيالوجيا عبر تاريخ يمتد أفقيا في الماضي وفي كل الأشكال القديمة، في الأسطورة والخرافة والملحمة والتاريخ والمرويات الشعبية، الشفاهية والمدونة. وهو من حيث الأنثروبولوجيا، عبر ثقافي، يمتد عموديا في كل الثقافات والمجتمعات والجماعات" (بوعزة، 2014: 34).

في ضوء هذا المنظور الثقافي، يغدو السرد أكثر من مجرد لعبة لغوية تنحصر ضمن حدود لسانيات الجملة النحوية "إنه تمثيل تجربة وبناء استراتيجيات بتوسل وساطات استطيقية" (بوعزة، 2014: 34). وتغدو النظرية السردية مطالبة بالانفتاح على تحليل الخطاب وعلى الشعريات الثقافية والدراسات النسوية والنظرية ما بعد الكولونيالية. في هذا المستوى من تحديد رهانات الدراسة وتحدياتها سيغوص الباحث بوعزة في تتبع الانفتاحات التي خاضتها السرديات مع رائد الشعرية تودوروف في كتابه "فتح أمريكا" بعد تعرفه على أعمال الناقد الثقافي إدوارد سعيد، بحيث لم تعد دراسة الأدب تتم

خارج السياق الإنساني أو الإنسانوي الذي يجمع بين التحليل الثقافي والتاريخ والتأويل. وسيشكل هذا اللقاء بين الشعرية والنقد الثقافي المدخل المرجعي الذي سيتيح للباحث بوعزة أن يستجلي على امتداد أكثر من عشرين صفحة الإبدالات المعرفية التي شيّدها النموذج الثقافي لفعل السرد في السرد الإمبراطوري والرواية ما بعد الكولونيالية واستراتيجيات الخطاب . النقيض. ويستند الباحث في ذلك على أنساق "الثقافة والإمبريالية" و"تأملات حول المنفى" لإدوارد سعيد، و"موقع الثقافة" لهومي بابا، و"دراسات التابع: تفكيك التأريخ" لجياتيري سبيفاك، و"دراسات ما بعد الكولونيالية" و"الرد بالكتابة" لبيل أشكروفت وآخرين، وغير ذلك. فالقراءة الثقافية لا تتجاهل الجانب الاستيطيقي للنص الروائي، ولا تسلم بنظرية الانعكاس في تفسير العلاقة بين النص والمرجع. إن هذه القراءة تحيل على الربط بين الرواية والعالم باستحضار البنيات السردية واللغوية والرمزية، بما يضمن تفادي كل إسقاط إيديولوجي مباشر. يقول الناقد بوعزة: "إن اعتبار السردية نسقا تشييديا تبرره في نظرنا الضرورة المعرفية الاجتماعية، وتبرز في حاجة النقد كخطاب فكري إلى إنتاج المعرفة وتشييد الوعي والمتخيل الاجتماعي ونقده عبر الاشتغال على النصيات والخطابات، وهو ما يفرض توسيع مفهوم السردية لإنجاز دراسات مقارنة بين أنساق الفهم والتأويل في السرد العربي، وبين ما يناظرها في الخطاب الفكري والفلسفي والإيديولوجي، لكل ذلك توسعت هذه الدراسة في البحث في دينامية السرد في الرواية العربية في ضوء علاقتها المتشابكة بديناميات القوة والسلطة والمركز والهامش، باقتراح مفاهيم الاستراتيجية السردية والتأويل السردي والغيرية والآخر" (بوعزة، 2014: 39-40).

## 3. منجَـز الدراسة النقدية الإجرائي:

قارب المنجز الإجرائي للكتاب تسعة متون روائية في أربعة محاور تحدد بؤرة الاشتغال النقدي وتجليّ أبعاد المداخل الثقافية التحليلية. وهكذا انشغل المحور الأول بثنائية السرد والسلطة، عبر ثلاثة مداخل: أولها تشريح السلطة بتجاذبات القوة والسلطة في رواية "دمية النار" لبشير مفتي، وثانيها إغواء الازدواج بتقويض قانون السلطة في رواية "كهوف هايدرا هوداهوس" لسليم بركات، وثالثها تفكيك النسق بتحرير الذاكرة واستعادة الذات في رواية "الساحة الشرفية" لعبد القادر الشاوي، واهتم المحور الثاني بثنائية السرد والآخر، عبر مدخلين اثنين: أولهما تمثيل الآخر بتفكيك النسق الفحولي في رواية "روائح ماري كلير" للحبيب السالمي، وثانيهما الرواية الحضارية من التمثيل الكولونيالي إلى ما بعد الكولونيالي في رواية "مصابيح مطفأة" لأحمد الكبيري. واشتغل المحور الثالث على ثنائية السرد والقوة، عبر مدخلين اثنين: أولهما تفكيك هندسة القوة: سلطة الشفرة في الرد بالكتابة في رواية "ترانيم البردي القديم" لآمال النخيلي، وثانيهما هجرة الحكاية في زمنية الاختلاف الثقافي في رواية "آيلان أو ليل الحكي" لإدمون عمران المليح. وتناول المحور الرابع ثنائية السرد والهوية، عبر مدخلين

اثنين: أولهما الخيال المترحل ترحيل الذات ونصنصة التاريخ في "كتاب الأيام" لشعيب حليفي، وثانيهما تفكيك هوية الكتابة بمنطق الحلم في نص "ثلاثة وجوه لبغداد" لغالب هلسا.

ولقد حرصت كل المقتربات التحليلية للمتون الروائية على الموازاة بين الانشغال الجاد بخواص البنى السردية ومكوناتها الجمالية، وبين توسيط تلك الخواص والبنى والمكونات لاحقاً لاستجلاء التجربة الإنسانية التي ترمِّز العالم وتبني تمثيلاتها حوله. ورغم ما يلوح في أفق المقالات النقدية المحاوِرة لتلك المتون التسعة من تفاوت في زمن الكتابة ونسق التشييد، إذ تتراوح اللغة النقدية الموظفة في النصوص النقدية بين المُغرقة في المقولات البنيوية كلياً، وبين التي مازالت في طور مراودة الأفق الثقافي وبين المتشبِّعة بالنسق الثقافي. فإن الناقد لم يحد في كل محاور تلك النصوص النقدية عن تفعيل أدوات الوصف البنيوي ومقولاته السردية التي تستكنه بدقة متن السرد، معتمدة نسقا منهجيا يتسم بالوضوح والموضوعية والرصد الشامل لمجمل الاستراتيجيات النصية السردية التي ينفرد بها كل متن روائي. وبنت المقاربة النقدية في أفق ذلك التوصيف البنيوي تأويلها للسياقات الثقافية التي تنفتح بين البنى والمكونات والمميزات، بحيث لا تغيب ذات الناقد عن منجَزه، بل تستضمر كل المرجعيات المعرفية والخلفيات الفكرية والأطر الثقافية التي من شأنها أن تجعل تمثيل المتن السردي للعالم ولمحاورته لمختلف الخطابات التي ينتجها ذلك العالم مدعومة بما يلائم النسق الثقافي من استدلالات أو تأويلات.

## 4. تمثيلات نصية ونسق ثقافي:

لا شك أن الأفق الثقافي الذي تقترحه أي دراسة ثقافية ليس منهجا نقديا يسعف نسقه المعرفي في ضبط الأدوات وتحديد المقولات. فالدراسة الثقافية لا ينحصر موضوعها في الأدب مثلما هو حال النقد الأدبي، بل إن الإجماع الأمريكي الأنجلوسكسوني منذ ستينات القرن الماضي قد أفضى بالنقد الثقافي إلى توسيع مفهوم الأدب معارضةً للأدب المعتمَد أو المؤسساتي، وذلك بالانفتاح على الأدب الشعبي والنصوص النسائية وأدب الأقليات، لتتم منذ بداية الثمانينات في نطاق الدراسات الثقافية إعادة تعريف الأدب ليشمل المادة غير الأدبية بالفهم البنيوي الفرنسي "للأدبية". إن موضوع الدراسات الثقافية أو انشغالها الأساس ينصب من هذه الزاوية على كل الممارسات الخطابية التي تقدم أشكالا لتجاور المعرفة بالقوة.

بناء على ذلك قد يبدو أن الاشتغال على الرواية بوصفها أهم أجناس الأدب السردية، هو انتصار غير معلن لمفهوم "الأدبية" البنيوي الفرنسي. في حين تمضي الدراسات الثقافية وأنساق تحليل الخطاب ودراسات الجنوسة والأقليات والزنوجة والنظرية ما بعد الكولونيالية إلى توطين مفهوم جديد للنص ينزاح إلى ما وراء حدود الصفحة والكتاب، نحو مفهوم جديد للأدب يتجاوز الأدب المعتمد أو الأدب المعترف بأدبيته وفق المنظور الفرنسي الذي يعتمده النقد الأدبي ويعتد بضوابط "أدبيته"،

لينفتح على كل الأشكال والممارسات التعبيرية التي تعيد بناء العالم وفق تمثلاتها الخاصة التي لا تخلو من إنتاج القوة أو التصدي لموازين قوة خارجية. ويغدو السرد أو السرديات أوسع من مفهوم الجنس الأدبي وفق منظورات النظرية والنقد الأدبيين.

وبمعزل عن هذا الانتصار لمفهوم الأدبية البنيوي في انتقاء الجنس الروائي متنا للدراسة، فإن انتقاءات النصوص لا تفارق الهيمنة الذكورية في المقاربات التحليلية التي اعتمدها الناقد في مؤلَّفه. فمن بين المتون الروائية التسعة يحضر نص روائي واحد من توقيع كاتبة روائية هو رواية "ترانيم البردي القديم" لآمال النخيلي. فقد تحدد المتن المقروء في الدراسة النقدية في روايات: "دمية النار" لبشير مفتي، و"كهوف هايدرا هوداهوس" لسليم بركات، و"الساحة الشرفية" لعبد القادر الشاوي، و"روائح ماري كلير" للحبيب السالمي، و"مصابيح مطفأة" لأحمد الكبيري، و"ترانيم البردي القديم" لآمال النخيلي، و"آيلان أو ليل الحكي" لإدمون عمران المليح، و"كتاب الأيام" لشعيب حليفي، و"ثلاثة وجوه لبغداد" لغالب هلسا. وتعضد القراءة النقدية التي قدمها الناقد لرواية "ترانيم البردي القديم" للروائية آمال النخيلي فرادة الصوت الروائي المؤنث ضمن المتون التسعة. فتفتح القراءة من عوالم النص ذاته لتلاحق "بحثه الحفري" وهو يعيد كتابة بقايا التواريخ المنسية. وهكذا تنبني محددات المقاربة النقدية على الوعي بأن السرد في الرواية يتجه "نحو استعادة هذا التخييل المنسي عبر خرائطية دينامية متعددة؛ بدئية (تاريخ قرطاج القديم، روما القديمة) راهنة (جدلية الشرق /الغرب) واقعية (أثر الواقعي) تراثية (السرد العربي القديم) شعبية (حكايات الناس اليومية) لا شعورية (استيهامات الشخوص)" (بوعزة، 2014: 139). مثلما تنبني على إدراك أن استعادة ذلك الأرشيف المنسي تتأسس في الرواية "من منظور وعي ثقافي بضرورة إعادة بنائه وتمثيله، خارج سياقات قانون القوة الذي يفرض حالة التهميش على الشخصيات وتواريخها المؤسسة لهويتها ووجودها" (بوعزة، 2014: 139). وفي ضوء هذا الإدراك النقدي المزدوج توصل الناقد إلى تأكيد الرواية "على أهمية موقع النساء في تفكيك هندسة القوة (...) فالصوت المتمرد الصادر عن جماعة منبثقة من داخل نظام القوة، يؤسس قوته الرمزية من إعادة بناء خطاب مضاد متشكك يقوض الافتراضات الابستمولوجية لكل من المركزية الذكورية والقوة القائمة" (بوعزة، 2014: 155). وهكذا فإن القوة الرمزية للسرد في رواية النخيلي . وفق نتائج القراءة النقدية . "تعمل في هذا لتقويض الحفري لمنطق القوة عبر إعادة تمثيل تواريخ القمع والكبت المنسية بأصوات المنظور المحلي، ونقشها خارج قانون القوة الذي فرض عليها حالة النسيان والصمت، عبر عملية "إسكات" استراتيجية، حتى ولو اقتضى الأمر الاستخدام المادي للقوة كما في الحالة الكولونيالية في القرن العشرين (الحكاية الإطار)، وحالة الغزو الروماني لقرطاج في التاريخ القديم (حكاية هيلينا)" (بوعزة، 2014: 156).

وفي ضوء مخرجات القراءة النقدية ومسارات التحليل التي اتخذتها في حد ذاتها، لا تعكس نسبة رواية واحدة لكاتبة من بين تسع روايات أي أثر لتفعيل المنطلقات الثقافية المعتدة بمقاربات

الجندر وبمداخل الدراسات النسوية والنسائية وتقويض المركزية الذكورية والوعي بتمثيلات السلطة والهيمنة والإسكات والتهميش في المجتمعات الأبوية.

لعل الملمح الثالث للنسق الثقافي الذي رسخته القراءات النقدية التي قدمها مؤلف "سرديات ثقافية" يرتبط بالتداخل بين التحليل والتنظير. لقد عمد الناقد بوعزة في كل دراساته التحليلية للروايات المرصودة متنا للمقاربة على تسديد التحليل النصي للرواية ليس بلغة نقدية واصفة تستقوي بالمفاهيم/المصطلحات وبالعمق الفكري والرزانة المعرفية فحسب. وإنما يتجاوز ذلك المستوى إلى البحث عن مستَنَدٍ للمقول النقدي التحليلي. فتتعدد الإشارات التوثيقية، وتنفتح نصوص الاستشهاد والتعزيز والاستدلال لتأخذ عن هومي بابا وإدوارد سعيد وجوليا كريستيفا وبيل أشكروفيت وجورج طرابيشي، وسيزا قاسم وأحمد بوحسن وأحمد المودن، وغيرهم. ولا يتحقق هذا التداخل من منطلق يتقاسم فيه الناقد الباحث الأساس النظري للتنصيص، أو يشارك المرجع المستند إليه في الأطر المعرفية أو في الإبدالات الكبرى. إن التحليل النقدي الذي يشيده الباحث الناقد يتأسس . حتى في عمق الانشغال النصي الإجرائي والاهتمام السردي الثقافي الملتزمَيْن بالخصوصية السردية المميَّزة . على دعائم تحليلية لباحثين ومفكرين ومنظرين، قد لا يجمعها بالموقع التحليلي الخاص في المبحث الذي يحلله الناقد بوعزة أي مشترك تحليلي نصي (الرواية/ أو المحور السردي)، أو أي مشترك نقدي (المفهوم/ أو المقترب النظري/ أو الإبدال).

فينفتح نسق النص التحليلي الثقافي الذي يبنيه الناقد على بنية محورية من الاحتراز في تسديد المسعى التحليلي بالحذر النظري، مما يحذو التحليل إلى استدعاء نصوص نظرية لا رابط يصلها بالمقاربة التي يصوغها الناقد في حد ذاتها غير التخريج التأويلي الذي يعتد ببنائه في أفقه التحليلي. وهو أمر جعل النقد الذي يقدمه الباحث محمد بوعزة نصا متميّزاً ومتشعبا ممتدا منهجيا ومعرفيا يترك المسافة بين القراءة التحليلية للرواية موضوع الدراسة وبين الأطر المعرفية والمداخل النظرية فضاء ممتداً ومترابطاً.

## الخاتمة:

كشفت استنتاجاتُ محور التمثيلات النصية والنسق الثقافي وهي تعقد المقارنة الوصفية والتحليلية بين الرهانات النظرية الكبرى التي أعلنها الناقد وما حقَّقه بالفعل في منجَز القراءة النقدية الإجرائية، المسافةَ النقدية التي تفصل المُعلَن عن المنجَز. في هدي ذلك توصلت الدراسة البحثية إلى النتائج الآتية:

- أولا: إن الطموح إلى استدعاء الأنساق الثقافية التي شيدتها مباحث الدراسات الثقافية المختلفة، بما يعنيه ذلك من استثمار لمفاهيم الآخر والقوة والسلطة والهوية والاختلاف والسرد البديل

والخطاب النقيض، في تحليل متن سردي أو روائي عربي، لا يمكن أن يتحقق خارج الوعي بتعارض النسق البنيوي مع النسق الثقافي، وهو وعي انطلق منه المؤلَّف النقدي نظرياً، لكنه لم يخرج من مآزقه إجرائياً.

- ثانيا: إن الأنساق الثقافية قد انطلقت بالفعل من ما بعد البنيوية، بوصف هذه الأخيرة لحظة نقدية اكتشفت فيها البنيوية قصورها وراجعت مآزقها. لكن الدراسات الثقافية تخطت لحظة النقد والمراجعة نحو التشييد المعرفي لتصورات لا تقف عند دراسة الرواية بعدِّها جنسا أدبيا مخصوصا بمكونات ومميزات بنيوية، بل بوصفها تمثيلا جماليا ورمزيا للعالم يمارس قوته في الوجود والتمثيل والإنتاج والمقاومة إلى جانب تمثيلات أخرى أدبية وغير أدبية.

- ثالثا: لم تَحِدْ الانتقاءاتُ النصية التي اعتمدها الناقد بوعزة في مؤلفه النقدي عن سلطة النص المعتمد أكاديميا، وعن "أدبية" الأدب مثلما أسس لها الفكر البنيوي وزكتها السرديات البنيوية، خارج الأفق المفتوح الذي وطَّنته الدراسات الثقافية والنقد الثقافي لمفهوم النص في العالم.

- رابعا: الخطاب النقدي الذي أنتجه المقترب النقدي المقترح في مؤلف "دراسات ثقافية" لدراسة المتون الروائية لم يفلح في خلق التوازن المطلوب في التوفيق بين المقترب البنيوي والمداخل الثقافية من حيث المفاهيم والأجرأة والوصف والتأويل.

- خامسا: لم يعضد –بالفعل والتحقيق– المقتربُ التحليلي لمؤلَّف "سرديات ثقافية" ما شيده الإطار النظري من رهانات وأبعاد وآفاق لمقترح تسديد نقص التوصيف البنيوي بالتأويل الثقافي، على الرغم من مختلف الاقتباسات والإحالات والدعامات المعرفية والنقدية والفكرية التي زكت الإطار النظري والمقتربات التحليلية للمؤلَّف.

- سادسا: تمثيلية الكتابة المؤنّثة للرواية، أو تمثيلية معارضة التأنيث التي تنتجها الكاتبات بوعي ثقافي يواجه سطوة استبداد "الفحولة" بالخطاب وبالثقافة العربيين، لم تكن منصفةً لمساعي زمن "المابعد" في تجلياته الفكرية والنقدية والإبداعية، وفق ما تنشده مباحث الدراسات الثقافية، ووفق ما أعلنه الناقد بوعزة في بيانه النظري.

- سابعا: كل دراسة نقدية ثقافية مدعوة إلى اقتحام التعددية والاختلاف النصي والإبداعي والإنتاجي خارج ما كانت تمأسس له البويطيقا والبنيوية ضمن سطوة "النص" وحظوة "المعتَمَد".

ولأجل ذلك سيكون مجديا لتتويج منجَز هذه الدراسة البحثية الختْمُ بالمقترحات الآتية:

- المقترح الأول: الوعي بأن محددات الوصف البنيوي للسرد تنطلق من مفهوم البنية الذي يتعارض مع مبدأ التناص الثقافي والفكري والتاريخي الذي يفضي إليه كل تفكير في مباحث الدراسات

والنقد الثقافيين.

- المقترح الثاني: الرؤية الأحادية التي تجعل الغوص في بنى النص السردي العميقة كشفا لمعالم أدبيته في الخطاب والحكاية، لا يمكن أن يسدَّد نقصُها بتدخل تأويل الناقد في إنتاج المعنى. فالمعنى مع "أدبية" و"بينة" النص مسؤولية الكتابة ومسؤولية النص، وعلى الناقد أن يكتفي بـ"حفر" بنى النص لبلوغه.

- المقترح الثالث: سيكون ملِهماً في الدرس والنقد الثقافيين الانفتاحُ في الانشغال البحثي والنقدي على روايات الكاتبات، ضد ما ظل حكرا ذكوريا في الأدب المعتَمَد في المؤسسة الجامعية الأكاديمية، وفي المؤسسة النقدية والنظرية فكرياً وإيبستيمولوجياً.

- المقترح الرابع: الحاجة ملحة إلى الانفتاح في القراءات النقدية على الأدب الاستعماري وما بعد الاستعماري، والرواية المعارضة لسرديات التاريخ الرسمي المؤسساتي، وروايات الزنوجة والأقليات والغيرية، والروايات التي كانت تعد شعبية خارج تحديدات الأدب المعتَمَد، مثل: الروايات البوليسية، وروايات المغامرات، والروايات العاطفية، وروايات الأطفال والفتية، والقصص المصورة والمتلفزة، والرسوم المتحركة والمجسَّمة والمشخصَّة وغيرها.

- المقترح الخامس: قد يكون الوعي بالمداخل المعرفية والأطر الناظمة الكبرى للإبدالات المتحكمة في تطوير النقد البنيوي، في لحظة ما بعد البنيوية، مسعى منشودا في كل اشتغال نظري أو إجرائي يقف أمام خصوصية النصوص الأدبية أو السردية أو الخطابات التي تحايث العالم وتحتاج إلى أن تكون محط الدراسة النقدية والثقافية. لكن الاعتداد بوضوح الرؤية النقدية وانسجامها مع الأفق التحليلي في ضوء ناظم واحد جامع يحتكم إلى المدخلات ذاتها يظل العامل الحاسم في كل اشتغال نصي نقدي. وهكذا فإن استراتيجيات الخطاب النقدي لا يفترض أن تنشغل بعيدا عن الرهانات الكبرى التي وضعتها معرفيا ومنهجيا.

## قائمة المصادر والمراجع:


- بنيت، طوني؛ غروسبيرغ، لورانس؛ موريس، ميغان (2010): مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

- بوعزة، محمد (2014): سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، ط1، دار الأمان، منشورات ضفاف، منشورات اختلاف.

- جنيت، جيرار (1983): عودة إلى خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم، ط1 (2000)، الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي.

- سعيد، إدوارد (1996): مشكلة النصية، موقفان أنموذجيان، نظرية الأدب في القرن العشرين، تحرير: ك، م، نيوتن، ترجمة: عيسى علي العاكوب، ط1، القاهرة: عين للدراسات والبحوث.
- سِلدن رامان، (1998): النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، القاهرة: دار قباء.
- Barthes, Roland (1970): S/Z, Edition du Seuil.